❖ المحور الثالث: علاقة اللفظ بالاستعمال

❖ الإعراب وبناء الكلمة في العربية

تمتاز اللغة العربية بقواعد تنظيمية دقيقة، تتمثل في أصوات تلحق أواخر الكلمات لتدل على وظيفة الكلمة في العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة، يطلق على النظام قواعد الإعراب والذي لا يوجد له نظير في بقية اللغات السامية إلا بعض الآثار الضئيلة في العبرية والآرامية والحبشية[1].

والإعراب مسؤول عن تحديد المعاني المختلفة التي تعتور الأسماء، من فاعلية أو مفعولية أو إضافة أو غير ذلك، ومراعاته في الكلام هي الفارق الوحيد بين تلك المعاني، يقول ابن فارس: « فأمّا الإعراب فبه تُميَّز المعاني ويُوقَف على أغراض المتكلمين، وذلك أنّ قائلاً لو قال: "ما أحسنْ زيدْ" غيرَ معرب أو "ضربَ عمرْ زيدْ" غير معرب لم يوقَف على مراده، فإن قال: "ما أحسنَ زيداً" أو "ما أحسنُ زيدِ" أو "ما أحسنَ زيدٌ" أبانَ بالإعراب عن المعنى الذي أراده»[2].

ولما أصابت العربية حظا من التطور أضحى الإعراب أقوى عناصرها، وأبرز خصائصها، بل وسر جمالها، وأمست قوانينه ضوابطه هي العاصمة م الخطأ[3]، قال ابن قتيبة: « ولها الإعراب الذي جعله الله وشيا لكلامها، وحلية لنظامها، وفارقا في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين، والمعنيين المختلفين كالفاعل والمفعول، لا يفرّق بينهما، إذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل أن يكون لكلّ واحد منهما- إلا بالإعراب، ولو أن قائلا قال: هذا قاتل أخي بالتنوين، وقال آخر: هذا قاتل أخي بالإضافة- لدّل التنوين على أنه لم يقتله، ودلّ حذف التنوين على أنه قد قتله»[4].

- **الداعي إلى الإعراب في اللغة العربية:**

غاية اللغة هو الإبانة عما في النفس، والتعبير تعبيرا خال من اللبس والغموض، وبما أن العربية لا تعتمد على الرتبة في تحديد وظيفة الكلمة، فكان الإعراب الوسيلة الوحيدة

1 فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص161

2 الصاحبي، ابن فارس، ص143

3 فقه اللغة، حاتم صالح الضامن، ص57

4 تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ص18

للإبانة على المعاني المختلفة للأسماء، قال أبو القاسم الزجاجي (ت 337 ه): «فإن قال قائل: فقد ذكرت أن الإعراب داخل في الكلام، فما الذي دعا إليه واحتيج إليه من أجله؟

فالجواب أن يقال: إن الأسماء لما كانت تعتورها المعاني، فتكون فاعلة ومفعولة، ومضافة، ومضافاً إليها، ولم يكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني بل كانت مشتركة، جُعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني، فقالوا ضرب زيد عمراً، فدلوا برفع زيد على أن الفعل له، وبنصب عمرو على أن الفعل واقع به. وقالوا ضُرِب زيدٌ، فدلوا بتغيير أول الفعل ورفع زيد على أن الفعل ما لم يسم فاعله وأن المفعول قد ناب منابه، وقالوا: هذا غلام زيد، فدلوا بخفض زيد على إضافة الغلام إليه، وكذلك سائر المعاني جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتسعوا في كلامهم، ويقدموا الفاعل إن أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه، وتكون الحركات دالة على المعاني»[1].

ولابد من الإشارة إلى أن ظهور اللحن في لسان من اعتنقوا الإسلام وقرأوا القرآن فأخطأوا في إعراب الكلمات العربية، دليل على أن العربية لغة إعرابية، وسبب رئيس في التنظير لقواعد الإعراب، يقول الزبيدي: «لم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها؛ حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان فدخل الناس فيه أفواجًا، وأقبلوا عليه أرسالًا، واجتمعت الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة ففشا الفساد في اللغة العربية»[2].

- **تعريف الإعراب:**

الإعراب لغة: مصدر أعربت عن الشيء: إذا أبنته، وأفصحت عنه، وإنما سمي الإعراب إعرابا، لتبيينه وإيضاحه، عن النبي ﷺ أنه قال: «الثيب تعرب عن نفسها»، وفي حديث آخر: «الثيب يعرب عنها لسانها» ؛ أي تفصح[3].

وفي اصطلاح النحاة: «الإعراب أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل في آخر الاسم المتمكن والفعل المضارع»[4]، وأنواعه أربعة: رفع ونصب وجر وجزم، وهو للأسماء المتمكنة[5] والأفعال المضارعة، وجدير بالذكر أن الإعراب مرتبط بالعامل متأثر به، فإذا زال العامل زالت

1 الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزجاجي، تح: د. مازن المبارك، دار النفائس – بيروت، ط5: 1406 ه، ص70

2 البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عبد الحميد عمر، ص86

3 لسان العرب، ابن منظور، مادة «عرب»، ج1 ص588

4 شرح شذور الذهب، ابن هشام، تح: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع – سوريا، ص41

5 الاسم المتمكن، هو الذي تمكن في باب الإعراب بحيث لم يشبه الحرف فيبنى، فلم يشابه الحرف كالذي ولم يتضمن معناه مثل كيف، ولم يقع موقع المبني، ولا ضارع ما وقع موقع المبني، ولا هو اسم زمان أضيف إلى جملة.

الحركة التي كان أثرا له، وقد ذهب إلى تبني نظرية العامل الكثير من النحاة كابن مالك (ت 673 هـ) والزمخشري (ت 538 هـ) وابن الحاجب (ت 646 هـ) وابن عصفور (ت 669 هـ)[1].

والأثر الذي يحدثه العامل قد يكون ظاهرا أو مقدرا، قال ابن هشام: الإعراب أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل في آخر الكلمة، فالظاهر كالذي في آخر زيد، في قولك: جاء زيد ورأيت زيدا، ومررت بزيد، والمقدر كالذي في آخر الفتى، في قولك: جاء الفتى، ورأيت الفتى، ومررت بالفتى[2].

- **أقسام علامات الإعراب:**

ينقسم الإعراب إلى رفع ونصب وجر وجزم، ويدل على هذه الأقسام الإعرابية علامات أصلية وعلامات فرعية نائبة عن الأصلية:

- الضمة علامة أصلية للرفع وينوب عنها: الواو والألف وثبوت النون.
- الفتحة علامة أصلية للنصب، وينوب عنها: الألف والياء والكسرة وحذف النون.
- الكسرة علامة أصلية للجر، وينوب عنها: الياء والفتحة.
- السكون علامة أصلية للجزم، وينوب عنه: حذف النون وحذف حرف العلة.

ولكل علامة أصلية أو فرعية مواضعها التي تناسبها، ويمكن العودة إلى كتب النحاة للاطلاع على هذه التفاصيل.

- **النحاة و إنكار الإعراب:**

شكك بعض العلماء من المتقدمين والمتأخرين في حقيقة الإعراب وزعموا أنه لم يدخل في العربية للدلالة على المعاني، وأن الحركات لم تكن أعلاما لمعان قصد إليها المتكلم، وإنما دخل الإعراب تخفيفا على اللسان، وأبرز هؤلاء قطرب (ت 206هـ) الذي يرى أن حركات الإعراب إنما جيء بها للسرعة في الكلام وللتخلص من التقاء الساكنين عند اتصال الكلام، والدكتور أنيس الذي ارتكزت نظريته على أن الحركات ليس لها مدلول، وإنما يؤتى بها للتخلص من التقاء الساكنين، وأن الفاعلية والمفعولية وغيرها تستفاد من موقع الكلمة في الجملة[3].

1 فقه اللغة، حاتم صالح الضامن، ص56

2 قطر الندى وبل الصدى، ابن هشام الأنصاري، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ط2: 1418هـ، ص64

3 فصول في فقه اللغة العربية، رمضان عبد التواب، ص375-376

رفض اللغويون هذا الرأي، ولم يأخذ به أحد منهم، ومن أبرز ردودهم أنهم يعتقدون أن رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف إليه، من الحقائق المسلم بها التي لم يشك فيها أحد من النحاة القدامى[1]، ولذلك قالوا: « لو كان كما زعم لجاز خفض الفاعل مرة، ورفعه أخرى ونصبه، وجاز نصب المضاف إليه، لأن القصد في هذا إنما هو الحركة تعاقب سكونا يعتدل به الكلام، وأي حركة أتى بها المتكلم أجزأته فهو مخير في ذلك، وفي هذا فساد للكلام، وخروج عن أوضاع العرب وحكمة نظام كلامهم»[2].

وكذلك فإن الإعراب ليس ميزة للغة العربية فقط، بل قد وجد أيضا في بعض اللغات السامية، كالأكادية، وتشمل اللغتين: البابلية والآشورية في عصورهما القديمة، ففي الجملة التالية باللغة البابلية: (ubbirma summa awelum awelam) بمعنى: «إذا اتهم إنسان إنسانا»، وفيها: (awelum) الأولى فاعل مرفوع بالضمة (u)، و(awelam) الثانية مفعول به منصوب بالفتحة (a)، والميم (m) في آخر الكلمة كالتنوين في العربية[3].

ثم إن القرآن أفصح الكلام وأبينه، إنما تحقق له ذلك بالإعراب، وقد وصل إلينا متواترا معربا، ولا يمكن الادعاء أن النبي ﷺ كان لا يحرك أواخر الكلمات أثناء تلاوته، بل كان يكون يتلوه محركا أواخره لتتبين المعاني المختلفة التي يحملها، ولا يمكن لغير ذلك أن يحدث ولو حدث لوصلت إلينا روايات عن ذلك[4].

ومما يؤكد إعراب القرآن، رسمه الذي يؤيد وجود الإعراب في العربية الفصحى، وأنه ليس من اختراع النحاة، فالألف مثلا في حالة المنصوب المنون، دليل على إعراب الكلمة وتحريكها بالنصب، كلفظة «غافل» في قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلا﴾ المنصوبة للمفعولية والتي تختلف عن المجرورة في قوله تعالى: ﴿وما الله بغافل﴾، هذا مع ما كان عليه القرآن في بادئ الأمر من تجرده من الإعجام والشكل، فإن القرن يرمز إلى كثير من علامات الإعراب بالحروف (المؤمنون، المؤمنين...)، ولاشك أن المصحف العثماني قد دون في عصر سابق بأمد غير قصير لعهد البصرة والكوفة الذين تنسب إليهم بعض من مذاهب اختراع قواعد الإعراب[5].

1 فصول في فقه اللغة العربية، رمضان عبد التواب، ص377

2 الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزَّجَّاجي، ص71

3 رمضان عبد التواب، المرجع السابق، ص382-383

4 المرجع نفسه، ص385

5 فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص164، فصول في فقه اللغة العربية، رمضان عبد التواب، ص382-383

وقد كان للإعراب دور في حرية حركة الكلمات في جمل القرآن، ولولاه لاختل معنى العبارة إذا اعتمد فيها على ترتيب الكلمات فقط، من ذلك قوله تعالى في مواضع كثيرة تؤسس لظاهرة الإعراب:

﴿إنما يخشى اللهَ من عِبَادِهِ العلماءُ﴾[فاطر: 28]

﴿أنَّ اللهَ بريءٌ من المشركين ورسولُه﴾[التوبة: 03]

﴿وإذِ ابْتَلى إبْراهيمَ رَبُّهُ﴾[البقرة: 124]

﴿وَإذا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القَرْبَةِ﴾[النساء: 08]

فبإعراب الكلمات: اللهَ، العلماءُ، ورسولُه، إبْراهيمَ، رَبُّهُ، القِسْمَةَ، اتضحت المعاني، وظهر الغرض من هذه الآيات الجليلة.

وأخيرا، فإن أوزان الشعر العربي، وقواعده الموسيقية تعتمد على نظام الإعراب، وبدونه تختل أوزان هذا النص الشعري وتضطرب موسيقاه، ويمكن اكتشاف الخلل في الوزن الشعري عندما تقرأ أي نص شعري بتسكين أواخر كلماته[1].

- **سر غياب الإعراب في اللهجات العامية:**

يلاحظ الكثير منا عند سماعه لمختلف اللهجات العربية العامية، أنها لا تعتمد على الإعراب في بيان المعاني في كثير من المناسبات، ويلاحظ تسكين أواخر الكلمات أثناء الكلام، وقد يعود هذا كما أشار إلى ذلك الدكتور علي عبد الواحد وافي إلى التغيرات التي دعلتها تبتعد لعن أصولها، فقال: «لقد انتاب أصوات اللغة العربية وقواعدها في هذه اللهجات كثير من صنوف التغيير والانحراف، وخضعت لقوانين التطور في مفرداتها وأوزانها ودلالاتها، فبعدت بعدا كبيرا عن أصلها...وتمثل قانون التطور الصوتي في ضعف الأصوات الأخيرة للكلمة وانقراضها، وهو قانون عام قد خضعت له جميع اللغات الإنسانية في تطورها، فما كان يمكن أن تفلت منه لهجة من اللهجات المتشعبة عن العربية»[2].

هذا لا يعني غياب علامات الإعراب عن اللهجات العامية غيابا كليا، إذ بقيت بعض آثاره في بعض اللهجات، خاصة ما تعلق بالإعراب بالحروف، خاصة النطق بالأسماء الخمسة معربة بالحروف (أبوك، أخوك) عند المصريين، والنطق بجمع المذكر السالم بالياء والنون (الطيبين، المؤمنين...) في لهجات العراق ونجد والحجاز، كما تنطق الأفعال الخمسة

1 فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص164، فصول في فقه اللغة العربية، رمضان عبد التواب، ص387

2 فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص162

مثبتة فيها النون (يمشون، تمشون، تمشين)، يشار إلى أن كتب التاريخ ككتب أبي الفداء، قد تضمنت الإشارة إلى أن علامات الإعراب ظلت باقية في بعض لهجات المحادثة المتشعبة عن العربية حتى أواخر العصور الوسطى[1].

مع ذلك فإن الإعراب بقي طوال العصور الممتدة من الجاهلية إلى يومنا هذا ثابتا في العربية الفصحى، معبرا عن واحد من أعظم خصائصها وعبقريتها، ومعبرا في الوقت نفسه عن عقلية عربية مبدعة في بناء العلاقات، والتحكم في ترتيبها في بناء الجملة العربية[2].

❖ أسئلة للمناقشة (الإعراب وبناء الكلمة):

- ما هي الوظيفة الأساسية للإعراب في الجملة العربية؟
- ما العلاقة بين المعنى اللغوي للإعراب والمعنى الاصطلاحي؟
- هل كان لمنكري الإعراب دليل قوي؟ وكيف تم إبطال حجتهم؟
- لماذا غاب الإعراب عن اللهجات العامية؟

1 فقه اللغة، علي عبد الواحد وافي، ص162

2 فقه اللغة مناهله ومسائله، محمد أسعد النادري، ص345